حملة «طريق سوريا إلى العدالة»

في حزيران/ يونيو 2020، وبالتزامن مع اليوم الدولي للقضاء على العنف الجنسي في حالات النزاع، أطلقت المنظمات النسوية السورية «بدائل» و«دولتي» و«النساء الآن من أجل التنمية» و«شبكة الصحفيات السوريات»، بالإضافة إلى «حملة من أجل سوريا»، حملة «**طريق سوريا إلى العدالة**».

تدعو هذه الحملة إلى زيادة فرص الوصول القانوني إلى العدالة للناجيات والناجين من العنف الجنسي والعنف القائم على النوع الاجتماعي الذي ارتكب خلال السنوات العشرة الماضية في سوريا في مراكز الاعتقال، وخاصة للناجيات اللواتي يواجهن عوائق تحول دون وصولهن إلى العدالة.

معارك الناجيات/ين من أجل العدالة تتخطى قاعة المحكمة لتدخل كل بيت وشارع في سوريا، وإن لم تحصل كل ناجية وناجٍ على الرعاية والاحترام والدعم الذي يحتاجونه/ تحتجنه ستبقى العدالة قاصرة أمام الجرائم الدولية التي تمر دون حساب.

تعمل الحملة على إنتاج محتوى يساهم في تعزيز وصول الناجين/ الناجيات من العنف الجنسي والعنف القائم على النوع الاجتماعي إلى العدالة، ورواية تجاربهن/م وقصصهن والتحديات التي تواجههن/هم.

ولذلك عملت شبكة الصحفيات السوريات على إنتاج هذه السلسلة من المدونات المكتوبة من ناجيات من العنف القائم على النوع الاجتماعي (خلال الاعتقال)، و/أو الخبيرات في هذا المجال وغيرهن من المهتمات بمسارات العدالة والمساءلة في سوريا.

شبكة الصحفيات السوريات
Syrian Female Journalists Network

Syrian Road To Justice
طريق سوريا إلى العدالة

نور
(اسم حركي لإحدى الناجيات من الاعتقال)

نقطة سودة

بدأت الحكاية منتصف شهر رمضان عام 2013 حينما ذهبنا للاطمئنان على إحدى الناشطات المقربات لنا. التي خرجت مؤخراً من المعتقل،

لتخبرنا بأن صديقتنا المقربة، والمختفية مما يقارب ثلاثة أشهر عند عبورها من المناطق «المحررة» لمناطق النظام حيث تم اعتقالها عند واحد من حواجز النظام، قد استشهدت تحت التعذيب، وقد أخذت أسرتها بالتفاوض للحصول على جثمانها.

أصابتني حالة من الانهيار ما بين وقع الخبر وبين الذكريات التي تبادرت إلى ذهني، انتابتني حالة من البكاء استمرت ثلاثة أيام متواصلة، فلطالما كانت هذه الصديقة من أصدق وأنشط الفتيات بيننا. وفي ظل تلك المشاعر التقيت بأصدقاء لنا في المناطق «المحررة» وقد كنا نعمل معاً، وتكلمنا عن الحدث، ليجيبني أحدهم بكلمات ما زالت ترن في أذنيّ إلى هذا اليوم، عندما قال: «ليش زعلانة؟ الله عليم شو صار معها وهي عم تتعذب، منيح ماتت أريحلها، يعني إذا طلعت عايشة، أحسن بلا ما تطلع وتموت مية ألف موتة باليوم، هيك أحسنلها، افرحيلها!».

نزلت تلك الكلمات كالرصاص على صدري، واعترتني حالة من الدهشة والصدمة، فكيف برفاق الثورة والنضال والوعي والثقافة أن يفكروا بمثل هذه الطريقة؟

أذكر أني خرجت من المكان، وابتعدت وقطعت أي علاقة عمل تربطني بذلك الشخص، إلى أن تمّ اعتقالي بعد سنة تماماً، وذلك في عام 2014، حيث تم اعتقالي من منزلي، الأمر الذي لم يكن مستغرباً بالنسبة إلي، بل كان متوقعاً، فلا حماية لنا ولا مظلة تقينا، ولا أحد يحمل مسؤولية ما يجري سوانا!.

معركتي الأولى:

بدأت الأمور كأي معتقل ومعتقلة في الأمن العسكري، وذلك من تحقيق وتعذيب، وفي إحدى جلسات التحقيق الطويلة قال لي المحقق: «شو رأيك نحكي وبلا أساليب التحقيق؟ نحكي من شب لصبية. أنا كتير زعلان عليكي ومتألم لأنك هون، ما مكانك هون ليش وصلتي حالك لهون؟»، وأضاف «بعدما دخلتي لهون، وأنتي بتعرفي المعتقل، وشو بتحكي الناس عنه، مين بدو يتجوزك؟ الفكرة العامة ركبت عليكي».

فأجبته: «أنا مالي موقوفة لقضية بتوطي الراس، أنا معروفة لأي سبب أنا هون»، ليرد عليّ بدهشة: «يعني مبسوطة بتهمة إرهاب؟ يا ستي العالم ما بتسأل شو السبب، بيكفي أنك دخلتي الفرع». حينها قلت له بثقة: «يلي ما بدو ياني لهاد السبب أنا ما بقبل فيه، أنا مالي عاملة شي غلط، والكلام هاد كان قبل، بهالظروف مجتمعنا صار واعي أكثر من هيك». أجاب باستنكار بلهجته الواضحة: «يلي صار نقطة سودة بسجلك وبحياتك وبذاكرتك ما رح تتركك أبداً». أذكر أني يومها عدت من التحقيق وأنا غارقة بموجة من الضحك، عن أي نقطة سوداء يتحدث؟ أيام ذلك التفكير قد ولّت. لطالما كنا أنا ومن معي في الغرفة نردد تلك الجملة ضاحكاتٍ باستهزاء.

دارت الأيام، وبعد تنقل بين عددٍ من الأفرع الأمنية، ومرور ما يقارب العام ونصف العام عشتها ما بين ذكريات ما مضى وبين أملٍ وتخطيط.. رسمت في مخيلتي أحلاماً ومشاريع وخطط مع «رفاق ورفيقات الصف الأول» كما كنا نسميهم/ن، فما كان ينسينا الألم ويهوّن الوقت، هو الشوق للدنيا التي تقبع خلف ذلك الباب الصغير حيث بدأت معركتي الكبيرة. جاءت اللحظة المنتظرة التي لطالما حلمت بها .. خلف ذلك الباب الصغير حياة جميلة تنتظرني!

الخروج من المعتقل:

بقيت يومين في دمشق للقيام ببعض إجراءات الخروج، كانت كمية الأشواق واللهفة والأحلام كبيرة لأهلي وأصدقائي وأشيائي، حتى صوت جارنا الذي كان يزعجنا بصراخه كنت قد اشتقت إليه.

للوهلة الأولى وعند وصولي لمنزلي، وجدت كماً هائلاً من الناس، رغم أننا لم نكن نعرف أحداً في هذه المنطقة، حيث نزحنا إليها نتيجة للأحداث.

أذكر حينها أني رأيت وجوهاً كثيرة لا أعرفها، وقد أقبلت لإلقاء السلام علي، وأنا أبحث عن وجوه أسرتي بين الزحام. وبعد السلام والعناق مع أسرتي جلست الحشود للحديث وبدأت التساؤلات، كانت ردات الفعل في البداية من مثل «ما شاء الله وجهك منيح، لا لا ما فيكي شي، ما شاء الله قدرانة تحكي» وبعدها «احكيلنا شو صار؟، أو طمنينا إن شاء الله ما صار شي؟، حدا شاف شعرك؟ حدا تعرضلك؟ لو ما اشتغلتي ما كان صار هيك!». لست أدري حقيقة وقتها لماذا توجب علي الرد على تساؤلات أناس لا أعرفهم بينما أسرتي لم تتطرق لتلك الأسئلة؟

قالت لي إحدى النساء بعد «الاطمئنان» من نجاتي من الاغتصاب: «والله وقت قلت لجوزي انو سجنوكِ قلي نامي وانتِ مرتاحة كم شهر وبتطلع بس وقت ليتحقق معها .. والله كلامه صح طلع ما بيصير شي جوا متل ما بحكوا».

جلست صامتة، في الحقيقة لم تكن النظرة الاجتماعية مفاجئة لي، فقد كنت جاهزةً للإطار العام. تذكرت كلمات صديقاتي المتزوجات في المعتقل حين قلن لي الحمدلله أنك «بنت» (أي عذراء) ما أن يطلق سراحك سيكون دليل براءتك بحوزتك، فيمكن لك الحصول على تقرير طبي من أي طبيب نسائية، أما نحن المتزوجات فمهما أقسمنا «لو نبلع أوراق المصحف» لن يصدق أزواجنا أن شيئاً لم يحصل.

زيارة الطبيب:

بالفعل كان عليّ زيارة الطبيب، لكن ذلك أتى نتيجة لفترة الاعتقال الطويلة، حيث كنت بحاجةٍ لمراجعةٍ مستعجلة للطبيب وإجراء بعض الفحوصات اللازمة، فلفترةٍ طويلة كنت أعاني من عدد من الأمور الصحية. طلبت من أحد الأقارب حجز موعدٍ لي مع طبيب الأسرة، وما أن دخلت حتى فاجأتني المرضة بطلبها لخلع ملابسي، وعند سؤالي عن السبب، أجابتني «لإجراء فحص نسائي!»، ظننت في البداية أن الموضوع جاء من جهلٍ من طرفها، فأخبرتها أن هذا ليس سبب زيارتي، فموعدي هو لإجراء فحوصاتٍ طبية.

عاد الأمر ليتكرر عندما دخل الطبيب، ما أثار استغرابي، وعندما رفضت أجابني بأن من حجز لي الموعد أخبره برغبتنا بإجراء فحص نسائي لزيادة الاطمئنان. تدخلت والدتي وقتها وأوضحت عدم رغبتنا بالأمر، غير أن ذلك كان بمثابة صدمةٍ لي، اكتفيت بالبكاء عند خروجي، وأزعجني تدخل الأقارب بتلك الأمور، في وقتٍ لم تطرح أسرتي فيه أي سؤال!

محاولة العودة للنشاط:

أردت البحث عن فرصة عمل أشغل بها نفسي، وبما أني كنت أعمل منذ بداية الأحداث مع المنظمات، توجهت إلى مركزٍ للهلال الأحمر السوري، وعندما تقدمت للعمل، طلبت مديرة المركز لقائي، وسألتني عن سبب توقفي عن العمل مدة عام ونصف، فأجبتها بأني كنت معتقلة،

ليأتي سؤالها «هل اغتصبوكِ؟». أذكر حينها أنها أخبرت السكرتيرة بأني معتقلة، وعند خروجي سمعتها تهمس لأصدقائها بالأمر.

كانت لي مجموعة كبيرة من الأصدقاء والصديقات، لكن قلة قليلة من تواصلوا/ن معي بعد خروجي من المعتقل، فغالبيتهم/ن قطعوا/ن علاقتهم/ن بي بدافع الخوف، حيث أن النظرة الأولى لمن يخرج/تخرج من المعتقل بأنه سيبقى/ستبقى تحت مراقبة النظام، وهي حقيقة موجودة. أذكر أنني عندما أردت العودة إلى المسجد الذي كنت أحضر فيه من قبل، طلبت من المشرفة التوقف عن الذهاب، وعدم ممارسة أي نشاطٍ لكوني تحت المراقبة. بالفعل وبعد أيامٍ قليلة تم طلبي للفرع مرةً أخرى فقررنا الذهاب إلى تركيا.

في مكان جديد:

للوصول إلى تركيا كان عليّ دخول المناطق «المحررة»، وكان ذلك أملاً بالنسبة لي وقد رسمت الكثير من المشاريع والأحلام، وقررت العودة إلى العمل في تلك المناطق، لكن ردة الفعل الأولى كانت رافضةً بشكلٍ تام، وقد سمعت عباراتٍ من مثل «كيف طلعتي؟ كيف طالعوكي أكيد جاسوسة لتجيبي معلومات؟ شو صار جوا؟ شالولك حجابك وشافوا شعرك؟». بعد فترة قصيرة من وصولي إلى تركيا تقدم لخطبتي أحدهم، وقد كان معتقلاً سابقاً بدوره، بتهمة «تشابهٍ في الأسماء» على حد قوله، وأذكر ما قاله لي حين رآني: «ماشاء الله فاجأتيني عم تحكي وتضحكي عادي، أنا فكرت رح تدخل بنت تحت عيونها أسود ووجها تعبان ومالها قدرانة تحكي، أنا صرلي طالع خمس سنين ولهلأ تاركة التجربة أثرها علي مع اني اعتقلت شهرين بس». ثم قال: «حابب اسالك سؤال: مالك ندمانة أنك اشتغلتي؟ يعني لو ما مشتغلة ما كانوا اعتقلوكي، أنا سبب اعتقالي تشابه اسماء أما أنتي فاشتغلتي». .. أجبته: «بتعرف لو رجع الزمن فيني لورا لأشتغل كتير وكتير شغل ما قدرت أشتغله أو أجلته وندمانة أني ماعملته».

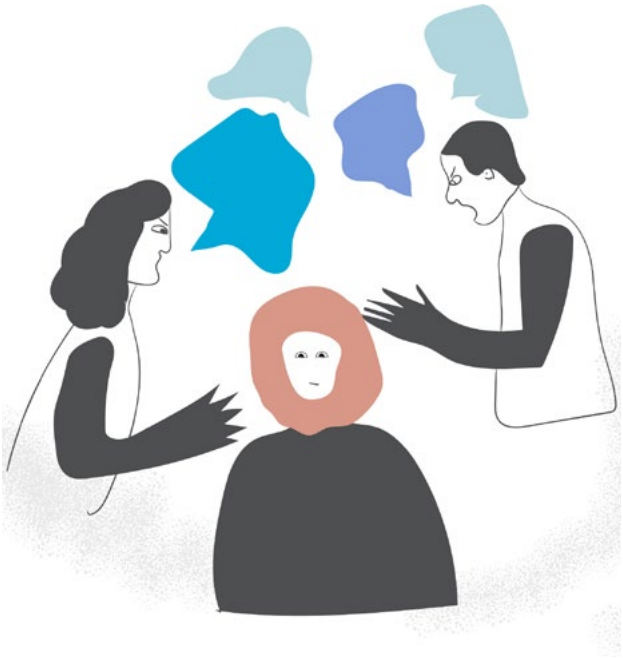

كما أذكر عريساً آخر تقدم لخطبتي أيضاً وعند رفضي لما رأيته من عدم اتفاقٍ بيننا، وإثر محاولات عدة، أخبر أسرتي بأنه على استعدادٍ للجلوسمعي والحديث إن كان سبب رفضي له عائداً لسبب حدوث أمرٍ ما في المعتقل.

الزواج أصبح المعضلة الكبرى:

بين الشخص «المحايد» خارج إطار الثورة، والذي يرفض ذكر تجربة الاعتقال أو يخجل من الحديث أمام الأسرة أو الأصدقاء عن هذا الأمر، أو شخص من داخل إطار الثورة لكنه المشفق المتعاطف، ليظهر بمظهر البطل المغوار الذي «يستر» على عار تلك الفتاة من مبدأ «دوريلي على بنت معتقلة أستر عليها».

ففي إحدى المرات أخبرتني صديقتي عن (عريس من الثورة)، يبحث عن عروس معتقلة سابقاً حصراً، أو زوجة شهيد، فاجأني سؤالها حين قالت «بصراحة الشب شرطه أن تكون المعتقلة مغتصبة حصراً، فأنتي شو الوضع؟».

وهذا غير أولئك الذين/اللواتي ينزعجن/ون بأني لا أقبل بأي فرصة وإن كانت غير متكافئة بحجة أني معتقلة وقد صارت فرصي قليلة.

كما تنصحني صديقاتي بأن أتكتّم على موضوع الاعتقال، فلا تذهب «فرصي الذهبية» وأن أتعامل مع الأمر كأي حدث يمر دون الحديث عنه.

في إحدى المرات أخبرتني سيدة بوجود «عريس» قطري يريد التقدم لخطبتي: «عندي عريس لقطة دكتور وقطري وغني كتير، شو رأيك نجوزك ياه فترة، وتكسبي مصاري ودعم وكم مشروع؟» ضحكت حينها ظناً مني أنها تمزح، وبعد قليل عادت لفتح الموضوع عينه، فكانت صدمتها حينما أجبتها بأن أسرتي لا تقبل بهذا النوع من الزواج، ولست ببضاعةٍ للبيع. وبالطبع تكثر مثل تلك القصص وأشكال الاستغلال لوضع المعتقلات السابقات ممن يتعرضن للرفض من أزواجهن أو أهاليهن، فيقع عليهن الاختيار واستغلال أوضاعهن، فكم من صديقةٍ أعرفها تزوجت زواجاً تعلم بعدم صوابه، وذلك بهدف حماية نفسها ودفع كلام المجتمع عنها. كما طالت الانتقادات والدي عندما يتحدث عن اعتقالي، فيقولون له «لا بقى تحكي عن اعتقال المحروسة الله يستر عليها، عم تضرب سوق البنت، ليش عم تحكي بصوت عالي؟ هالقصة مانها فخر».

وصم، إسكات.. أو شفقة:

منذ خروجي من المعتقل أضيفت على اسمي لاحقة جديدة، فعندما يضيفني أحدهم/إحداهن على الهاتف يتم تسجيل اسمي مع صفة «المعتقلة» لتمييزي.

ومنذ فترةٍ قريبة وأثناء حلقة تخرجي، كتبت إهداءً لأصدقائي وصديقاتي المعتقلين والمعتقلات، ممن كانوا/كنّ معي ولم يروا/يرين النور بعد، فتساءل الدكاترة عن ذلك الإهداء، وأخبرتهم بالقصة. وما أن انتهيت حتى طالتني انتقادات كبيرة من الطلبة والطالبات ممن رأى أنه موضوع

علينا عدم الخوض فيه والتحدث به على العلن، لأن المجتمع «لن يتقبلني». وفي بعض الأحيان وأثناء النقاشات نتطرق لأمور جرت في المعتقل أو لأشخاصٍ قابلناهم/ن هناك، لكن دائماً ما يتم إسكاتي «لا بقى تذكري هي الأمور، انسيها مرحلة ومضت، ما عندك إلا هالحديث».

أمر آخر يؤثر بي، في كل عملٍ ناجح أقوم به تطالني عبارات من مثل «ما شاء الله رغم هذه الظروف استطاعت فعل ذلك، ما شاء الله على هذه القوة، الحمد لله الذي عوضها عما راح من عمرها». وأعلم أن هذه العبارات غالباً ما تأتي من الناس من باب المحبة، غير أنها كثيراً ما تمسني بالعمق، فمن حقي الفرح بنجاحي كأي شخصٍ طبيعي، ودون الشعور بشيء من الشفقة أو المجاملة.

كل ما أتمناه هو أن يعاملني المجتمع كأي شخصٍ طبيعي، فأفرح وأحزن، أفشل وأنجح، أضعف وأقوى، كأي إنسان آخر في هذا العالم، فما جرى لم ينقص مني شيء ولا من قيمتي أو كرامتي بل على العكس.

اليوم وقد مضى على خروجي ما يقارب الخمس سنوات، أرى نفسي لليوم مطالبة بتقديم صك البراءة وتأكيد أن أحداً لم يمسني هناك لأشخاصٍ لا أعرفهم، فقط لأنهم سمعوا باعتقالي.

على ما يبدو أننا قد خرجنا من سجن صغير لسجن كبير...

تمضي المواقف وترنّ في أذني عبارة أضحكتني يوماً: «هي نقطة سودة».